البحث الثامن

مقومات النجاة في سورة العصر
دراسة تحليلية موضوعية

دكتور

عادل عبد اللطيف رجب عبد العاطي

مدرس التفسير وعلوم القرآن الكريم

كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة ـ جامعة الأزهر

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، أنزل على عبده الكتاب هدى وذكرى لأولي الألباب، والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين، وإمام المتقين، وحجة الله علي العباد أجمعين سيدنا محمدٍ ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، وارض اللهم عن الصحابة أجمعين، وعن التابعين وتابعيهم إلي يوم الدين، وبعد..

فهذا بحث بعنوان "مقومات النجاة في سورة العصر: دراسة تحليلية موضوعية " تناولت فيه مقومات النجاة التي عرضتها هذه السورة الكريمة، والتي يتمثل فيها منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام، وتبرز معالم التصور الإيماني بحقيقته الكبيرة الشاملة في أوضح وأدق صورة، فهي تضع الدستور الإسلامي كله في كلمات قصار وتصف الأمة المسلمة: حقيقتها ووظيفتها في آية واحدة هي الآية الثالثة من السورة، وهذا هو الإعجاز الذي لا يقدر عليه إلا الله[1].

وهذه المقومات الأربعة المتمثلة في الإيمان بالله تعالى كما بينه النبي صلي الله عليه وسلم، والعمل الصالح الذي ينبثق من هذا الإيمان، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، من التزم بها كان من الناجين ومن لم يلتزم بها كان من جملة الخاسرين في الدنيا والآخرة.

وهي إن دلت علي شئ فإنما تدل علي أن النجاة بين يدي الله عز وجل لا تتحقق بعرض من أعراض هذه الدنيا، من مال أو جاه، أو علم، أو عمل دنيوي محض، أو غير ذلك مما يتنافس فيه الناس تنافسا أدى إلى طغيان الماديات علي حياة الإنسان، واستحواذ الفراغ الروحي على قلبه، مع تشتيت فكره وعقله في ظواهر الحياة الدنيا على نحو جعله غافلا تماما عن الآخرة، فأصابه ما حذر منه رسول الله ﷺ في حديثه الشريف «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ

(1) انظر: في ظلال القرآن سيد قطب ٣٩٦٤/٦ .

لَهُ»[١].

هذا وقد جاءت خطة البحث في مقدمة وتمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

أما المقدمة؛ فبينت فيها أهمية الموضوع، وسبب اختياره، وخطته.

وتضمن التمهيد نبذة عن سورة العصر، ألقيت الضوء فيها على اسمها، والسر في تسميتها، وزمان نزولها، وعدد آياتها، وفضلها، ومناسبتها لما قبلها، وما بعدها، ثم بينت بإيجاز الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة، ثم توطئة بين يدي السورة.

وتضمنت مباحث الدراسة مقومات النجاة التي نصت عليها السورة الكريمة، وقد جاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: الإيمان.

المبحث الثاني : العمل الصالح.

المبحث الثالث: التواصي بالحق.

المبحث الرابع: التواصي بالصبر.

وأما عن الخاتمة فذكرت فيها نتائج البحث، وأتبعتها بقائمة المراجع.

وأختم بدعاء الفيروز آبادي: "الله أسأل أن يثيبني به جميل الذكر في الدنيا، وجزيل الأجر في الآخرة، ضارعًا إلى من ينظر من عالم في عملي، أن يستر عثاري وزللي، ويسد بسداد فضله خللي، ويصلح ما طغى به القلم، وزاغ عنه البصر، وقصر عنه الفهم، وغفل عنه الخاطر، فالإنسان محل النسيان، وإن أول ناسٍ أول الناس، وعلى الله التكلان"[٢].

---

(١) سنن ابن ماجه -كتاب الزهد- باب الهم بالدنيا- ٢/١٣٧٥ (٤١٠٥).
قال البوصيري: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة رواه بنحوه، ورواه الطبراني بإسناد لا بأس به، ورواه ابن حبان في صحيحه بنحوه، ورواه أبو يعلي الموصلي من طريق أبان بن عثمان عن زيد بن ثابت وله شاهد من حديث أبي هريرة رواه الترمذي في الجامع وابن ماجه (مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه ٤/٢١٢).

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادى ص٣٢.

التمهيد

نبذة عن سورة العصر

اسمها والسر في تسميتها:

هذه السورة المباركة تسمي بسورة "العصر" وهو اسم توقيفي كأسماء غيرها من سور القرآن الكريم، قال السيوطي رحمه الله تعالى: ثبت جميع أسماء السور بالتوقيف من الأحاديث والآثار ولولا خشية الإطالة لبينت ذلك[1].

وقد سميت بهذا الإسم: لافتتاحها بالحديث عن العصر وهو أمر انفردت به من بين سور القرآن الكريم، والعصر: الدهر، لاشتماله على الأعاجيب، من سرّاء وضرّاء، وصحة وسقم، وغنى وفقر، وعز وذل، وانقسامه إلى أجزاء: سنة وشهر ويوم وساعة ودقيقة وثانية[2].

قال البقاعي: واسمها "العصر" واضح في ذلك، فإن العصر يخلص روح المعصور.ويميز صفاوته. ولذلك كان وقت هذا النبي الخاتم، الذي هو خلاصة الخلق ﷺ وقت العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات[3].

زمان نزولها:

سورة العصر "مكية" في قول جمهور المفسرين (٤)، وقد ذكرت بعض الروايات أنها مدنية، غير أن أسلوبها يدل على مكيتها(٥)، ولذا ذكرها السيوطي في عداد السور المكية فيما روي عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن البصري، ولم يذكرها في عداد السور المختلف في مكيتها أو

---

(١) الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي ١٨٦/١.
(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج د وهبة بن مصطفى الزحيلي ٣٩٠/٣٠.
(٣) انظر: مصاعد النظر للإِشْرَافِ عَلَى مقاصد السور للبقاعي ٢٤٦/٣.
(٤) انظر: التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥٢٧/٣٠.
(٥) التفسير الحديث محمد عزت دروزة ٥٦١/١.

مدنيتها(١)، وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الشرح وقبل سورة العاديات(٢).

عدد آياتها:

اتفق المفسرون علي أن عدد آيات سورة "العصر" ثلاث آيات، ولم يشذ عن ذلك أحد(٣).

فضلها:

هذه السورة الكريمة علي الرغم من قصرها جمعت من العلوم ما جمعت(٤)، ففيها تجتمع العناصر الأساسية التي تتأسس عليها الحضارة، فهي تبدأ بذكر الزمان العصر، ثم يأتي ذكر الإنسان مقروناً بصفة الخسر التي يستثني منها الذين جمعوا بين عنصري النظر ﴿ءَامَنُوا﴾ والعمل ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وفعلوا الجانب النظري المعرفي ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ وفعلوا الجانب العملي التطبيقي ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٥).

ففي هذه السورة القصيرة جماع الخصال الإنسانية التي تصلح الآحاد والجماعات(٦).

ومن هنا قال الإمام الشَّافِعِي في بيان فضلها: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم(٧). يعني: كفتهم موعظة وحثاً على التمسك

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/٤٠: ٥٥.
(٢) التحرير والتنوير ٥٢٧/٣٠.
(٣) انظر: الكشاف ٧٩٣/٤، مفاتيح الغيب ٢٧٧/٣٢، الجامع لأحكام القرآن ١٧٨/٢٠، إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم ١٩٧/٩، محاسن التأويل للقاسمي ٥٣٥/٩ ، التفسير المنير للزحيلي ٣٩٠/٣٠.
(٤) روح المعاني للألوسي ٤٥٧/١٥.
(٥) اقتران الإيمان بالعمل الصالح في القرآن ودلالته الحضارية ص ٤٥٩ د عبد الرحمن الرحمن حللي مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية المجلد (٢٧) العدد الثالث لسنة ٢٠١١
(٦) المعجزة الكبرى القرآن للشيخ/ محمد أبوزهرة ص١١٧
(٧) تفسير الإمام الشافعي ١٤٦١/٣

بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك، وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كفتهم موعظة، فكل إنسان عاقل يعرف أنه في خسر إلا إذا اتصف بهذه الصفات الأربع، فإنه سوف يحاول بقدر ما يستطيع أن يتصف بها، وإلى تخليص نفسه من الخسران(١).

وبمعنى آخر المراتب أربعة وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله: إحداها: معرفة الحق، والثانية: عمله بِهِ، والثالثة: تعليمه من لَا يحسنه، والرابعة: صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه.. وهذا نهاية الْكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كَامِلا فِي نَفسه مكملا لغيره، وكماله بإصلاح قوتيه العلمية والعملية، فصلاح القوة العلمية بالإيمان وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات، وتكميله غَيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل، فهذه السورة على اختصارها هي من أجمع سور القرآن للخير بحذافيره(٢).

وقال الشيخ رشيد رضا في بيان فضلها: هي أجمع للفضائل،وأبلغ في الهداية من جميع الكتب التي في العالم سماوية كانت أو غير سماوية، وهي كافية لأن تكون دينًا مستقلاً لقوم يتدبرون(٣).

ولأن الجيل الأول الذي رباه الرسول صلى الله عليه وسلم فهموا هذه الحقيقة أدركوا قدر هذه السورة وعرفوا مكانتها فكَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا الْتَقَيَا لَمْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [العصر: ١، ٢] ثُمَّ يُسَلِّمَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ"(٤).

ولم يكن ذلك منهم للتبرك وإنما ليذكر كل واحد منهما صاحبه بما ورد

(١) تفسير جزء عم لابن عثيمين ص٣١٣
(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ابن قيم الجوزية ٥٦/١، ٥٧.
(٣) مجلة المنار ٤٣٦/٥.
(٤) المعجم الأوسط للطبراني ٢١٥/٥ رقم(٥١٢٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد- باب ما جاء في الخوف والرجاء ٣٠٧/١٠ رقم(١٨١٩٨) وعزاه إلي الطبراني في الأوسط، وقال: ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة.

فيها من التواصي بالحق والتواصي بالصبر، حتى يجتلب منه قبل التفرق وصية خير لو كانت عنده(١).

لقد كانا يتعاهدان على هذا الدستور الإلهي، يتعاهدان على الإيمان والصلاح، ويتعاهدان على التواصي بالحق والتواصي بالصبر، ويتعاهدان على أنهما حارسان لهذا الدستور، ويتعاهدان على أنهما من هذه الأمة القائمة على هذا الدستور(٢).

مناسبتها لما قبلها:

لما قال تعالى: "ألهاكم التكاثر" وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه وذلك لبعده عن العلم بموجب الطبع أنه كان ظلوما جهولا، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان فقال: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ فالقصور شأنه والظلم طبعه والجهل جبلته فيحق أن يلهيه التكاثر ولايدخل الله عليه روح الإيمان ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ إلى آخرها"فهؤلاء الذين لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله(٣).

فكأن هذه السورة تعليل لما سلف إلا أنه ذكر فى السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه، وجرى مع شيطانه حتى وقع فى التهلكة، وهنا ذكر من تجمل بأجمل الطباع، فآمن بالله وعمل الصالحات، وتواصى مع إخوانه على الاستمساك بعرى الحق، والاصطبار على مكارهه(٤).

قال الألوسي: "فيها إشارة إلى حال من لم يلهه التكاثر ولذا وضعت بعد سورته"(٥).

(١) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن محمد رشيد رضا ص ٦٧.
(٢) في ظلال القرآن ٣٩٧١/٦.
(٣) البرهان فى تناسب سور القرآن أبو جعفر الغرناطي ص٣٧٦.
(٤) تفسير المراغي ٢٣٣/٣٠.
(٥) روح المعاني ٤٥٧/١٥.

مناسبتها لما بعدها:

فى سورة العصر أقسم الحقّ جلّ وعلا «بالعصر» على أن الإنسان فى خسر، مستثنيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق، وتواصوا بالصبر، وفى سورة الهمزة عرض للإنسان الخاسر، ومن أين كان خسرانه، وإلى أين يكون مصيره(١).

الوحدة الموضوعية للسورة الكريمة:

المراد بالوحدة الموضوعية: أن تكون السورة متماسكة إلي أبعد درجات التماسك بحيث إن كل آية أو جملة بل كل كلمة تفضي إلي التي تليها، ولا يمكن حذف واحدة منها أو إضافة غيرها إليها(٢).

والغالب في السورة الواحدة من سور القرآن الكريم أن تكون ذات موضوع بارز كلي تأتلف عليه جزئياتها كلها في مقاطعها المتلاحقة المترابطة(٣)، وهذا أمر يسري في السورة الطويلة كسورة البقرة والسورة القصيرة كسورة العصر وسورة الكوثر.

ومن هنا يمكن القول: إن الموضوع الرئيس الذي تدور حوله سورة العصر هو بيان مقومات النجاة للإنسانية من الخسران، فقد لخصت عواقب النشاط الإنساني كله، علي امتداد الزمان والمكان، وبينت أن المقطوعين عن الله حطب جهنم، وأن المتمسكين بالإيمان والصلاح المتواصين بالحق والصبر هم الذين كسبوا في الدنيا وفازوا في الآخرة(٤).

توطئة بين يدي السورة:

أقسم الله تعالى في بداية هذه السورة بالعصر وقد اختلفت أقوال المفسرين في المقصود به علي أقوال كثيرة، أرجحها أن العصر هو الدهر بما

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب ١٦/١٦٧٠.
(٢) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف د حسن محمد باجودة ص٣٥.
(٣) مباحث في علوم القرآن صبحي الصالح ص١٥٢.
(٤) انظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم الشيخ محمد الغزالي ص ٥٣٩.

فيه من خير وشر، وهو القول الذي اختاره الطبري مستندا إلى أن الله تعالى لم يخصص مما شمله هذا الإسم معني دون معني، وهذا يعني أن كل ما لزمه هذا الاسم داخل فيما أقسم به جل ثناؤه(١).

وقد نص الله تعالى علي العصر دون الدهر مع أنه هو المقصود في هذه السورة كما ذكرنا لعلمه بأن الملحد مولع بذكره وتعظيمه، وقد ذكره في قوله تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١] رداً علي فساد قولهم بالطبع والدهر(٢).

فإن قيل: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قد نهى عن الحلف بغير الله تعالى، فكيف أقسم الله تعالى بغير ذاته هنا وفي مواطن متعددة من كتابه؟

والجواب: أن العلماء أجمعوا علي أن لله تعالى القسم بما شاء من خلقه، لأنه دال عليه وملك له، وليس لأي من الخلق أن يقسم إلا بالله تعالى.

ثم إنه لا بد من علاقة بين المقسم به والمقسم عليه، يكون ذلك جلياً، وقد يكون خفياً، هذا ما تقتضيه الحكمة والإعجاز في القرآن، وفي هذه السورة المقسم عليه هو حالة الإنسان، الغالبة عليه من خسر، إلا من استثني الله تعالى، فكان المقسم به والعصر المعاصر للإنسان طيلة حياته وهو محل عمله الذي به يخسر ويربح وهو معاصر له وأصدق شاهد عليه، فكان القسم في العصر علي الربح والخسران أنسب ما يكون بينهما، إذ جعلت حياة الإنسان كسوق قائمة والسلعة فيه العمل والعامل هو الإنسان، كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الصف: ١٠-١١] وفي

(١) انظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري ٥٨٩/٢٤.
(٢) مفاتيح الغيب للرازي ٢٧٧/٣٢.

الحديث الذي رواه مسلم عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَآنِ - أَوْ تَمْلَأُ - مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَالصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا»(١) فإن كان يشغل عمره في الخير فقد ربح، وأعتق نفسه وإلا فقد خسر وأهلكها، ويشير إلي ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فصح أن الدنيا سوق، والسلعة فيها عمل الإنسان، والمعاملة فيه مع الله تعالى.. وبهذا يتبين وجه الربط والمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في سورة العصر(٢).

ثم يأتي جواب القسم في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ والإنسان مراد به العموم بدليلِ الاستثناءِ منه، وهو من جملةِ أدلة العمومِ(٣).

والإنسان فى خسر، أي: فى ضلال، لأنه لم يعرف قدره، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذي أهّله الله تعالى له، فقد خلقه فى أحسن تقويم، ولكن الإنسان لم يلتفت إلى هذا الخلق، ولم يقدره قدره، ولم يأخذ الطريق الذي يدعو إليه العقل، بل انقاد لشهواته، واستخف بإنسانيته، وتحول إلى عالم البهيمة، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام ذلك هو شأن الإنسان فى معظم أفراده وأحواله، وقليل هم أولئك الذين عرفوا قدر إنسانيتهم، وما أودع الله تعالى فيهم من قوى قادرة على أن ترتفع بهم إلى الملأ الأعلى، لو أنهم

(١) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم(صحيح مسلم) مسلم بن الحجاج ٢٠٣/١ كتاب الطهارة -باب فضل الوضوء- رقم(٢٢٣).
(٢) انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٤٤٢/٨: ٤٤٦.
(٣) الدر المصون ١٠٣/١١.

أحسنوا استعمالها، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله عز وجل(١).

وقد أكد الله تعالى هذا الجواب بمؤكدات كثيرة فجاء بحرف التوكيد "إن" ثم حرف "اللام" ثم حرف الظرفية "في" ليشعر أن الإنسان مستغرق في الخسران، وهو محيط به من كل جهة(٢).

وإنما احتاج هذا الخبر إلي التأكيد لأن كثيراً من الناس يظنون أن من الأحوال والأعمال وراء ما ذكر في هذه السورة ما لا خسار فيه، بل يعتقدون أن السعادة في التخلص من عقد الإيمان، والعنق(٣) من قيود الفضائل، وانطلاق النفس فيما يسمونه متسع الفكر، وحرية العمل، بدون تحرج من رذيلة، ولا إحجام عن فاحشة، متي كانت تلذ للنفس في العاجل، وإن أدت بها إلي الهلكة في الآجل، وإن من الأمم من يسعد وإن اتبع أفرادها أهواءهم، وملكتهم شهواتهم، ما داموا يكسبون المال ويوفرون علي أنفسهم وسائل القوة في زعمهم، سواء آمنوا أو لم يؤمنوا، عملوا الصالحات أولم يعملوا، تواصوا بالحق والصبر أولم يتواصوا، وأمثال هؤلاء الظانين يفوق عددهم الحصر في كل زمان ومكان(٤).

والخسر هنا مطلق لا يتقيد بدنيوي أو أخروي، فكل مكلف ممن لم يتصف بالأوصاف الآتية في السورة يصيبه حظ من الخسران في هذه الحياة أو في التي بعدها؛ لأن السورة مكية والخطاب في المكيات تراعَى فيه العمومات في كثير من الآيات(٥).

- ولم يبين الحق تعالى هنا محل الخسران ولكنه بينه في مواضع أخر

(١) التفسير القرآني للقرآن عبد الكريم الخطيب ١٦٦٩/١٦.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب ٢٨٠/٣٢ ، أضواء البيان ٨٩/٩.
(٣) قال ابن فارس: العين والنون والقاف أصل واحد صحيح يدل علي امتداد في شىء، إما في ارتفاع وإما في انسياح(انظر: مقاييس اللغة ١٥٩/٤).
(٤) انظر: تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٦٨
(٥) انظر: المرجع السابق ص ٦٩، ٧٠

من القرآن الكريم فتارة يكون الخسران للنفس كما قال تعالى ﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٩] وكما في قوله تعالى ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾ [هود: ٢١].

وتارة يكون الخسران للنفس والأهل كما في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥] وكما في قوله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٤٥].

وتارة يكون الخسران شاملًا للدنيا والآخرة كما في قوله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

المبحث الأول

الإيـــمـــان

مدلول الإيمان:

الإيمان: مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن، فالهمزة والميم والنون أصلان متقاربان أحدهما: الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب، والآخر: التصديق، والمعنيان متدانيان(١).

والإيمان تارة يتعدي بنفسه كصدق، وتارة يتعدي باللام فيكون معناه الإذعان، وتارة يتعدي بالباء فيكون معناه الاعتراف إشارة إلي أن التصديق لا يعتبر بدون اعتراف(٢).

وروده في القرآن الكريم:

ورد الإيمان فى التنزيل على خمسة أَوجه: (٣)

الأَوّل: بمعنى إِقرار اللِّسان:قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٣] أَى: آمنوا باللسان، وكفروا بالجَنَان.

الثَّانى: بمعنى التصديق فى السرّ والإِعلان: قال تعالى﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٧]

الثالث: بمعنى التوحيد وكلمة الإيمان: قال تعالى﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٥] أَى: بكلمة التَّوحيد.

الرّابع: إِيمان فى ضمن شرك المشركين أُولى الطُّغيان قال تعالى﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] وقولنا: إِيمان فى ضمن الشِّرك هو معنى قوله تعالى ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

(١) انظر: تهذيب اللغة الأزهري، ٣٦٨/١٥.
(٢) انظر: تاج العروس الزَّبيدي ١٨٦/٣٤، ١٨٧.
(٣) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز للفيروز آبادي ١٥٠/٢، ١٥١.

[الزخرف: ٨٧].

الخامس: بمعنى الصّلاة قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ نَارٌ﴾ [البقرة: ١٤٣].

المدلول الشرعي للإيمان:

الإيمان: حقيقة مركبة من معرفَة ما جاء بِهِ الرسول صلي الله عليه وسلم علما والتصديق بِهِ عقدا، والإقرار بِهِ نطقا، والانقياد له محبة وخضوعا، والعمل به باطناً وظاهرا، وتنفيذه، والدعوة إليه بِحَسب الإمكان(١).

إنه اتصال هذا الكائن الإنساني الفاني الصغير المحدود بالأصل المطلق الأزلي الباقي الذي صدر عنه الوجود، ومن ثم اتصاله بالكون الصادر عن ذات المصدر، وبالنواميس التي تحكم هذا الكون، وبالقوى والطاقات المذخورة فيه. والانطلاق حينئذ من حدود ذاته الصغيرة إلى رحابة الكون الكبير. ومن حدود قوته الهزيلة إلى عظمة الطاقات الكونية المجهولة. ومن حدود عمره القصير إلى امتداد الآباد التي لا يعلمها إلا الله(٢).

العلاقة بين المعني اللغوي والمعني الشرعي:

عرفنا أن من معاني الإيمان لغة: التصديق، والتصديق يكون بالقلب واللسان والجوارح، وهكذا الإيمان الشرعي، عبارة عن تصديق مخصوص، وهذا التصديق لا ينفع وحده(٣)، بل لابد معه من الانقياد والاستسلام، وهو ما يسمى بعمل القلب ويلزم من ذلك قول اللسان، وعمل الجوارح، وهذه الأجزاء مترابطة، لا غنى لواحدة منها عن الأخرى(٤).

السر في ذكر الإيمان مطلقاً دون تقييد:

لأن متعلق الإيمان كان معروفاً عند المخاطبين، وهو الله تعالى وصفاته التي ورد بها النقل الصريح، وأثبتها العقل الصحيح، والوحي ومن جاء به،

(١) الفوائد لابن القيم ص ١٠٧.
(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٩٦٤، ٣٩٦٥.
(٣) هذا كلام لا يسلم به علي الإطلاق، لأن التصديق قد ينفع وحده في النجاة من الخلود في النار، أو لمن قال كلمة التوحيد قبل موته.
(٤) مجموع الفتاوي ٧/٦٣٨.

والبعث والجزاء، فهذه هي الأصول التي كان يدعو إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمن صدقهم فيها، كان مؤمناً ويصدق بما يتبع ذلك من التفصيل(١).

حكمة التعبير بالماضي في آمنوا:

حكمة التعبير بالماضي الحث على الدخول في الدين ولو على أدنى الدرجات، والبشارة لمن فعل ذلك بشرطه بالنجاة من الخسر(٢)، أو للإشارة إلي أن مقام المكافأة والجزاء يناسبه الماضي، إذ الأجرة بعد الخدمة(٣).

الحكمة في بدء هذه المقومات بالإيمان:

تكمن الحكمة في بدء مقومات النجاة بالإيمان في عدة أمور:

أولاً: الإيمان هو أصل الحياة، الذي ينبثق منه كل فرع من فروع الخير، وتتعلق به كل ثمرة من ثماره فلا قيمة ولا وزن لعمل لا يرجع إلى الإيمان، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في أكثر من موضع قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨] وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩].

وهذه النصوص وغيرها كثير صريحة في بطلان كل عمل لا يرجع إلي الإيمان، وأن لا قيمة لعمل إلا أن يرتبط بمنهج الإيمان، وإلا أن يكون باعثه الإيمان، يقول الله تعالى هذا ويقرره فلا تبقى بعده كلمة لإنسان، ولا يجادل في هذا القرار إلا الذين يجادلون في آياته بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير(٤).

---

(١) المنار ١/١٩٢.
(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي ٢٢/٢٣٨.
(٣) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز بديع الزمان سعيد النورسي ص١٩٨.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ١/٤٥١ ، ٦/٣٩٦٦

ثانياً: النفس التي لا إيمان فيها تبقى مضطربة تائهة شقية؛ لأنها لم تقف على سر الطمأنينة والرشاد المتمثل في منهج الله تعالى الذي بعث به رسله، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَایَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]

إن الإيمان المنوط به النجاة في السورة الكريمة لا بد أن يكون إيمانا لا شك فيه ولا تردد، وأن يكون مقترنا بالعمل بمرادات الله تعالى، ومن هنا تتجلى عناية القرآن الكريم ببيان معنى الإيمان وحقيقته في مواطن كثيرة من سوره، كي لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان، أو تصديق يستقر في القلب، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهجه تعالى، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة(١).

الإيمان والإسلام والفرق بينهما:

الفرق بين الإيمان والإسلام من المسائل التي أطال العلماء الكلام عليها في كتب العقائد وحاصل ما ذكروه في ذلك أنه إذا ذكر أحد اللفظين في موضع فإنه يدل علي الآخر، وإذا ذكرا معاً فالإيمان يراد به الأعمال الباطنة، والإسلام يراد به الأعمال الظاهرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإيمان تارة يذكر مفرداً غير مقرون باسم الإسلام ولا باسم العمل الصالح ولا غيرهما، وتارة يذكر مقروناً إما بالإسلام كما في حديث جبرائيل "مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ» . قَالَ: مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: " الإِسْلاَمُ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ، وَلاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ »(٢) وكقوله تعالى﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥] وكذلك ذكر الإيمان مع العمل الصالح وذلك في مواضع من القرآن كقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٧] فلما ذكر الإيمان مع الإسلام جعل الإسلام هو الأعمال

(١) في ظلال القرآن ٤٢٣/١ .
(٢) صحيح البخاري ١٩/١ كتاب الإيمان –باب سؤال جبريل النبي صلي الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، و الإحسان وعلم الساعة (٥٠).

الظاهرة الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج، وجعل الإيمان ما في القلب من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وإذا ذكر اسم الإيمان مجرداً دخل فيه الإسلام والأعمال الصالحة كقوله في حديث الشعب «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ – أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ – شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»(١) وكذلك سائر الأحاديث التي يجعل فيها أعمال البر من الإيمان(٢).

الدلالة القرآنية علي سببية الإيمان في النجاة من المهالك:

من يستقرئ النصوص القرآنية يجدها تدل دلالة واضحة علي أن الإيمان ينجي من المهالك ففي قصة نبي الله لوط عليه السلام قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦].

وفي قصة هود عليه السلام قال تعالى ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨].

وليس أصرح مما حدث مع قوم نبي الله يونس عليه السلام قال تعالى ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨].

ظاهر هذه الآية أن إيمان قوم يونس ما نفعهم إلا في الدنيا دون الآخرة، لقوله تعالى: ﴿ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ويفهم من مفهوم المخالفة في قوله ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن الآخرة ليست كذلك، ولكنه تعالى أطلق عليهم اسم الإيمان من غير قيد في سورة الصافات، والإيمان منقذ من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة(٣).

(١) صحيح مسلم ٦٣/١ – كتاب الإيمان - باب شعب الإيمان.
(٢) انظر: مجموع الفتاوي لابن تيمية ١٣/٧، ١٤.
(٣) أضواء البيان ١٦٢/٢.

وكما بين القرآن أن الإيمان سبب للنجاة من العذاب والهلاك بين أيضاً أن عدم الإيمان وهو الكفر سبب للهلاك والخسران قال تعالىﭐ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥].

وهذا الكلام من باب التعريض لغير الرسل، لأن الله سبحانه قد عصمهم من الشرك، ووجه إيراده علي هذا الوجه التحذير والإنذار للعباد من الشرك، لأنه إذا كان موجباً لإحباط عمل الأنبياء علي الفرض والتقدير؛ فهو محبط لعمل غيرهم من أممهم بطريق الأولي(١). ثم عطف عليه أن صاحب الإشراك من الخاسرين، شبه حاله حينئذ بحال التاجر الذي أخرج مالاً ليربح فيه زيادة مال فعاد وقد ذهب ماله الذي كان بيده أو أكثره، فالكلام تمثيل لحال من أشرك بعد التوحيد فإن الإشراك قد طلب به مبتكروه زيادة القرب من الله(٢). فكان حالهم كحال التاجر الذي طلب الزيادة علي ما عنده من المال ولكنه طلب الربح من غير بابه، فباء بخسرانه وتبابه(٣).

(١) فتح القدير للشوكاني ٤/٥٤٤.
(٢) هذا إشارة إلي المشركين الذين حكي الله تعالي عنهم أنهم ما اتخذوا شركاء لله تعالي إلا ليقربوهم منه سبحانه وتعالي قال تعالي ﭐ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٤/٥٩.

المبحث الثاني

العمل الصالح

العمل:

كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل، لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات، والعمل قلما ينسب إلى ذلك، ولم يستعمل العمل في الحيوانات إلا في قولهم: البقر العوامل(١)، وهو يستعمل فى الأعمال الصالحة والسيئة، قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الرعد: ٢٩] وقال تعالى ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤] (٢).

والعمل الصالح له مكانة عظيمة في الإسلام، فهو ثمرة للإيمان بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا ذكر في كثير من الآيات القرآنية تارة لبيان جزائه الحسن كما في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] وتارة لبيان نفعه للإنسان في آخرته كما في قوله تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وتارة لبيان أن الله تعالى لا يضيّع أجره كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠] وتارة لبيان أنه سبب لتكفير السيئات وغفران الذنوب، وأنَّ الخسارة تلحق الإنسان لا محالة، إلّا مَنْ آمن وعمل الصالحات قال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧].

(١) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ص٥٨٧.
(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ١٠١/٤.

الفرق بين العمل والكسب والفعل:

العمل أعم من الكسب ولهذا قال تعالى ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧-٨](١).

والفرق بينه وبين الفعل يتمثل في أن : العمل إيجاد الأثر في الشئ، يقال: فلان يعمل الطين خزفا ويعمل الخوص زنبيلا والأديم سقاء، قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] أي خلقكم وخلق ما تؤثرون فيه بنحتكم إياه أو صوغكم له، ولا يقال يفعل ذلك لأن فعل ذلك الشئ هو إيجاده في حال كان قبلها مقدوراً سواء كان عن سبب أو لا(٢).

مدلول الصالحات:

الصلاح ضد الفساد وهما مختصّان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن الكريم تارة بالفساد، وتارة بالسّيّئة. قال تعالى ﴿وَءَاخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة/ ١٠٢] وقال تعالى ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦](٣).

والصالحات: ما تصلح به أنفس الأفراد و نظام الاجتماع في البيوت والأمة والدولة، فكل عمل من العبادات الدينية أو المعاملات المدنية والسياسية لا يؤدي إلي الصلاح أو الإصلاح فهو غير صالح، فإما فاسد في أصله، وإما أدي علي غير وجهه(٤).

بلاغة التعريف في الصالحات:

التعريف فيها تعريف الجنس الذي يراد به الاستغراق(٥)، وهو تعبير عام

(١) أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرماني ص ١٥٩.
(٢) انظر: الفروق اللغوية ١٣٣/١، ١٣٤.
(٣) المفردات في غريب القرآن ص٤٨٩.
(٤) انظر: المنار ٤١٦/١١.
(٥) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥٣٢/٣٠.

يتضمن كل أنواع الخير والبر والمعروف تعبدياً كان أم غير تعبدي، فعبادة الله وحده وإسلام النفس إليه ونبذ ما سواه عمل صالح، والإحسان والبرّ بالمحتاجين والرحمة بالضعفاء عمل صالح، والجهاد في سبيل الله ومكافحة الظلم والظالمين والتضحية بالنفس والمال في هذا السبيل عمل صالح، والتزام الحق والعدل والصدق والأمانة عمل صالح، والتعاون على البرّ والتقوى والأعمال العامة عمل صالح، والكسب الحلال وقيام المرء بواجباته نحو أسرته وأولاده وأقاربه عمل صالح(١).

العمل الصالح المقبول ومواصفاته:

العمل الصالح المرتكز علي الإيمان هو الذي يؤهل الإنسان للحياة الطيبة، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧] والحياة الطيبة هي الحياة التي فيها ثلج الصدور بلذة اليقين وحلاوة الإيمان والرغبة في الموعود والرضا بالقضاء. وعتق الروح مما كانوا يستعبدون له، والاستكانة إلى معبود واحد. والتنوّر بسر الوجود الذي قام به، وغير ذلك من مزاياه المقررة في مواضعها هذا في الدنيا(٢) وأما في الآخرة، فله الجزاء الأحسن والثواب الأوفى(٣).

وقد دل القرآن الكريم علي أن العمل الصالح ما تحقق فيه أمران :

(١) التفسير الحديث ٥٦٢/١، ٥٦٣.

(٢) قال الشنقيطي: وفي الآية الكريمة قرينة تدل علي أن المراد بالحياة الطيبة في الآية: حياته في الدنيا حياة طيبة، وتلك القرينة هي أننا لو قدرنا أن المراد بالحياة الطيبة: حياته في الجنة في قوله ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ صار قوله ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ تكراراً معه، لأن تلك الحياة الطيبة هي أجر عملهم، بخلاف ما لو قدرنا أنها في الحياة الدنيا، فإنه يصير المعني :فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة، ولنجزينه في الآخرة بأحسن ما كان يعمل (انظر: أضواء البيان للشنقيطي ٤٤١/٢).

(٣) محاسن التأويل للقاسمي ٤٠٧/٦.

الأول: أن يكون العمل خالصًا لوجه الله تعالى(١) لأن الله تعالى يقول ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة: ٥] وقال تعالى﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ١٤ – ١٥] وذلك لأن العمل إذا لم يكن خالصاً لله تعالى فهو مردود علي صاحبه، وهذا ما دل عليه حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قَالَ: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ "(٢).

ففي هذا الحديث حث للعباد أن يخلصوا في أعمالهم؛ ليكون العمل مقبولًا، ويثاب عليه، ويكون ذخراً لهم في يوم هم أحوج ما يكون إليه(٣).

والإخلاص لا يكون إلا من مؤمن لقول الله تعالى ﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ [النحل: ٩٧] فقيد ذلك بالإيمان(٤) وهذا التقييد يفيد بمفهوم المخالفه أنه لو كان غير مؤمن لما قبل منه ذلك العمل الصالح، ولذا قال الله تعالى في قوم منافقين ﴿ وَمَا مَنَعَهُمۡ أَن تُقۡبَلَ مِنۡهُمۡ نَفَقَٰتُهُمۡ إِلَّآ أَنَّهُمۡ

---

(١) ومعني الخلوص لله أن يكون بعيداً عن الرياء قال الإمام محمد عبده: الرياء ضربان : رياء النفاق وهو العمل لأجل رؤية الناس، ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معني العمل وسره وفائدته ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب إليه به، وهو ما عليه أكثر الناس(انظر: تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٣٧).

(٢) صحيح مسلم ٤/٢٢٨٩ كتاب الزهد والرقائق _باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٣) انظر: الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للمناوي ص ٨٥.

(٤) قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: قوله تعالى ﴿ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ جملة حالية، وهذه الحالة قيد واقع على الشرط الذي لا يتحقق جوابه إلا وهو مقترن بهذا القيد فالإيمان شرط لازم لقبول العمل الطيب، والجزاء عليه وكل عمل لا يسبقه إيمان بالله، هو عمل ضالّ، مردود على صاحبه لأنه قدّمه غير ناظر إلى الله سبحانه وتعالى، ولا محتسب له أجرا عنده، إذ كان غير معترف بوجوده فالعمل الصالح الذي لا يزكيه الإيمان بالله، أشبه بالميتة التي لم تدركها زكاة بالذبح، ويذكر اسم الله عليها (انظر: التفسير القرآني للقرآن ٧/٣٥٨).

كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٥٤].

الثاني: أن يكون العمل موافقاً لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، لقول الله تعالى في كتابه ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾ [الحشر: ٧] فالعمل الذي لم يأمر به رسول الله صلي الله عليه وسلم مردود لا يقبل، عن عَائِشَةُ رضي الله عنها، أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»"(١). قال النووي: هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه صلي الله عليه وسلم فإنه صريح في رد البدع والمخترعات(٢).

اقتران الإيمان بالعمل الصالح ودلالته:

لما كان الإيمان في الأصل للتحقيق والتصديق، قيل: ما ذكره الله تعالى إلا قرن به الأعمال الصالحة، تنبيهاً على أن الاعتقاد لا يغني من دون العمل(٣).

وقد اقترن العمل الصالح بالإيمان في القرآن الكريم نحو خمس وسبعين مرة(٤)، وهذا يدل على الارتباط والتلازم بينهما، فلا إيمان دون عمل صالح يعبر عنه ويبرهن عليه، ولا قيمة للعمل الصالح دون إيمان يرتكز ويركن إليه، فإيمان بلا عمل كشجر بلا ظل ولا ثمر، وعمل بلا إيمان كجسد بلا روح، كما أن العمل الصالح هو الثمرة الطبيعية للإيمان، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب، فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى

(١) صحيح مسلم ١٣٤٣/٣ كتاب الأقضية – باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور(١٧١٨).
(٢) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي ١٦/١٢.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ١٢٢/١.
(٤) انظر: التفسير البياني للقرآن بنت الشاطئ ٨٦/٢ ، ٨٧.

تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح هذا هو الإيمان الإسلامي لا يمكن أن يظل خامدا لا يتحرك، كامنا لا يتبدى في صورة حية خارج ذات المؤمن، فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت(١).

وهذا يعني أن الإيمان شيء في أعماق النفس لا يمكن أن يدل عليه إلا العمل الصالح، وهذا يمنح المؤمن طمأنينة واستقرار نفس يجعلانه يصدر في أعماله وأهدافه عن يقين وقصد وتثبت واندفاع وصبر، ويتحمل في سبيل ذلك ما قد يلاقيه من مصاعب وما تمس الحاجة إليه من تضحيات، كما أنه يجعل صاحبه يقبل على الخير والعمل الصالح وينقبض عن الشر والإثم ابتغاء وجه الله واتقاء لغضبه واكتسابا لرضائه ورضوانه، دون أن يكون هناك حافز من منفعة عاجلة، أما العمل الذي لا يصدر عن إيمان فإنه يكون معرضا في الأغلب للانقطاع والتردد والتأثر بالاعتبارات الشخصية والنفعية والظرفية، وكثيرا ما ينصرف المرء عنه حينما يلقى المصاعب والمشاكل، أو حينما يتطلب منه التضحيات، أو حينما لا يكون من ورائه جلب خير أو دفع شر عاجل، والعمل الصالح من الجهة الأخرى لا يكون فيه حيوية ويقين وتثبت واستمرار إذا لم يكن منبثقا من إيمان يجعله لازما حيّا قويا بذاته، ويجعل صاحبه لا ينصرف عنه مهما لاقى في سبيله من مصاعب واقتضى منه من تضحية وعناء(٢).

السر في ذكر العمل الصالح مطلقاً دون تقييد:

لأن العمل الصالح معروف عند الناس بالإجمال، وذلك كاف في الترغيب فيه وجعله تابعاً للإيمان متصلاً به ولازماً من لوازمه، وقد بين الله تعالى الأعمال الصالحة بالتفصيل في آيات كثيرة، وكأنه يقول: إن العمل الصالح معروف عند الناس، لأنه أودع في نفوسهم ما يميزون به بين الخير والشر، ولكن

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٧

(٢) التفسير الحديث ٥٦٨/١ ، ٥٦٩

بعضهم يضل بانحراف يطرأ علي نفسه ثم يضل بضلاله آخرون، فتكون التقاليد والعادات الناشئة عن هذا الضلال هي الميزان في معرفة الصلاح والفساد، والخير والشر لا أصل الهداية الفطرية، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال النبي صلي الله عليه وسلم: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ»(١) يعني: أن الإنسان لو ترك ونفسه لاهتدى إلي الحق ما دام بعيداً عن التقاليد والعادات(٢).

السر في تقديم الإيمان علي العمل:

قدم الإيمان علي العمل لأن العمل من غير المؤمن لا يقبل(٣)، وهذا ما صرح به القرآن الكريم في أكثر من موضع قال تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [هود: ١٦] وقال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: ١٨] فقد ضرب الله تعالى لأعمال الكفار مثلاً في هذه الآية الكريمة برماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، أي شديد الريح، فإن تلك الريح الشديدة العاصفة تطير ذلك الرماد ولا تبقي له أثراً، فكذلك أعمال الكفار كصلات الأرحام، وقري الضيف، والتنفيس عن المكروب، وبر الوالدين ونحو ذلك يبطلها الكفر ويذهبها، كما تطير تلك الريح ذلك الرماد(٤).

الدلالة القرآنية علي سببية الخسران بترك العمل:

أعمال العباد توزن وزناً في غاية العدالة والإنصاف، فلا يظلم الله أحداً

(١) صحيح البخاري ٢/١٠٠ - كتاب الجنائز – باب ما قيل في أولاد المشركين(١٣٨٥). والجَدْعُ: قطع الأنف والأذن والشفة(ينظر:العين ٢١٩/١).
(٢) المنار ١٩٣/١
(٣) التفسير الكبير للرازي ٣٠/٢٥
(٤) أضواء البيان ٢٤٥/٢

شيئاً، وهذا ما صرح به القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] فمهما كان العمل في غاية القلة والدقة فإن الله يأتي به، ويجازي عليه إن خيراً فخيراً وإن شراً فشراً، وقد بين الله تعالى أن الموازين عند ذلك الوزن منها ما يخف، ومنها ما يثقل، وأن من خفت موازينه هلك، ومن ثقلت موازينه نجا قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩] وقال تعالى ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣] وقال تعالى ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ﴾ [القارعة: ٦-١١] فأخبر تعالى عما يئول إليه عمل العاملين، وما يصيرون إليه من الكرامة أو الإهانة بحسب أعمالهم(١)، فمن ثقلت موازينه بالخيرات فهو في عيشة راضية أي مرضية، ومن خفّت موازينه من الطاعات فمأواه هاوية(٢).

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤٦٨/٨
(٢) ينظر: لطائف الإشارات ٧٦١/٣

المبحث الثالث

التــواصـــى بالـحـــق

لما كان المرء لا ينتفي عنه مطلق الخسر بعد كماله في نفسه بالأعمال إلا بهداية غيره إلي الكمال، وهذا هو ديدن الأنبياء فإنهم ما أرسلوا إلا لهذه الهداية،قال تعالى مخصصاً لما دخل في الأعمال الصالحة ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾

والناس قلما ينقصهم العلم بالحق والباطل، وبالهدى والضلال، إن الحق بطبيعته من الوضوح والظهور بحيث لا يحتاج إلى بيان طويل، إنما تنقص الناس الرغبة في الحق، والقدرة على اختيار طريقه، والرغبة في الحق والقدرة على اختيار طريقه لا ينشئهما إلا الإيمان، ولا يحفظهما إلا التقوى(١).

مدلول التواصي:

الـواو والصـاد والحـرف المعتـل: أصـل يـدل علـي وصـل شـىء بشـىء، ووصيت الشىء وصلته، ويقال: وطئنا أرضاً واصية، أي: إن نبتها متصل قد امتلأت منه، ووصيت الليلة باليوم: وصلتها، وذلك في عمل تعمله، والوصية من هذا القياس، كأنه كلام يوصي أي يوصل(٢). أو هي التّقدّمُ إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ، قال تعالى ﴿...﴾ [البقرة/ ١٣٢][٣].

الفرق بين الإنذار والوصية والأمر:

الوصية تكون منك لنفسك ولغيرك، تقول: أوصيت نفسي كما تقول أوصيت غيري، والإنذار لا يكون إلا منك لغيرك، والوصية تكون بالحسن والقبيح، لانه يجوز أن يوصي الرجل الرجل بفعل القبيح كما يوصي بفعل

(١) في ظلال القرآن ٤٨٠/١

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١١٦/٦

(٣) المفردات في غريب القرآن ص٨٧٣

الحسن، والإنذار لا يكون إلا بالزجر عن القبيح وما يعتقد المنذر قبحه(١)، والوصية أعم من الأمر فهي أبلغ وأدل على الاهتمام وطلب الحصول بسرعة(٢).

السر في التعبير بالتواصي:

أولاً: هذا التعبير يفيد المشاركة فلا يكفي أن يلتزم الإنسان الحق والصبر بنفسه، بل يجب أن يتضامن الناس فيهما ويوصي بعضهم بعضا بهما(٣)؛ لأن النجاة من الخسران إنما تناط بحرص كل من أفراد الأمة على الحق، ونزوع كل منهم إلى أن يوصي به قومه ومن يهمه أمر الحق، ليوصي صاحبه بطلبه، يهمه أن يرى الحق فيقبله، فكأنه في هذه العبارة الجزلة، قد نص على تواصيهم بالحق وقبولهم الوصية به إذا وجهت إليهم(٤).

ثانياً: في اختيار هذا اللفظ إشارة إلى الرفق في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستعمال اللين بغاية الجهد(٥).

ثالثاً: في إيثار هذا اللفظ دون الدعاء أو النصيحة تأكيد بليغ ،كأنه أمر مهتم به كالوصية، وفيه أنهم من الذين ماتوا بالإرادة عن الشهوات الفانية، فيكون أمرهم ونصيحتهم بمنزلة قول من أشرف على الوفاة(٦).

مدلول الحق:

الحاء والقاف أصل واحد، وهو يدل علي إحكام الشئ وصحته، والحقُّ نقيض الباطل، يقال: حقَّ الشيْء يحق حقاً أي وجب وجوباً، فهو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره(٧)، ويقال على أوجه:

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله

(١) انظر: معجم الفروق اللغوية أبو هلال العسكري ٧٨/١، ٧٩
(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ٤٢٦/٢
(٣) انظر: التفسير الحديث ٥٦٣/١
(٤) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٧٣
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢٢/٢٤٠
(٦) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٥٦٠/٦
(٧) ينظر: معجم مقاييس اللغة ١٥/٢، كتاب العين للخليل بن أحمد ٦/٣، التعريفات للجرجاني ص ٨٩

تعالى: هو الحقّ، قال الله تعالى ﴿ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّ ﴾ [يونس: ٣٠] وقيل بعيد ذلك: ﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ [يونس: ٣٢].

الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كلّه حق، نحو قولنا: الموت حق، والبعث حق قال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا ﴾ [يونس: ٥] إلي قوله ﴿ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ ﴾ [يونس: ٥]وقال في القيامة: ﴿ وَيَسۡتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَۖ قُلۡ إِي وَرَبِّيٓ إِنَّهُۥ لَحَقّٞ ﴾ [يونس: ٥٣].

الثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنّة والنّار حقّ، قال الله تعالى: ﴿ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الرابع: للفعل والقول بحسب ما يجب وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حقّ وقولك حقّ، قال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ﴾ [يونس: ٣٣] وقال تعالى ﴿ وَلَٰكِنۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ مِنِّي لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ ﴾ [السجدة: ١٣](١).

والمراد به هنا: الأمرِ الثَّابتِ الذي لا سبيل إلى إنكاره ولا زوال في الدارين لمحاسن آثارِه وهو الخير كله من الإيمانِ بالله عز وجل واتباعِ كتبهِ ورسلِه في كل عقد وعمل(٢).

الفرق بين الحق والحقيقة:

الحقيقة ما وضع من القول موضعه في أصل اللغة حسنا كان أو قبيحا،

(١) انظر: المفردات ص ٢٤٦، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٤٨٤/٢ ، ٤٨٥

(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم ١٩٧/٩

والحق ما وضع موضعه من الحكمة فلا يكون إلا حسنا، وإنما شملهما اسم التحقيق لاشتراكهما في وضع الشىء منهما موضعه من اللغة والحكمة(١).

السر في عطف التواصي بالحق علي عمل الصالحات:

عطف التواصي بالحق علي عمل الصالحات وهو منها، عطف خاص علي عام للاهتمام به؛ لأنه قد يغفل عنه، يظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته، فوقع التنبيه علي أن من العمل المأمور به إرشاد المسلم غيره ودعوته إلي الحق، فالتواصي بالحق يشمل تعليم حقائق الهدي وعقائد الصواب وإراضة(٢) النفس علي فهمهما بفعل المعروف وترك المنكر(٣)، أو ذكره بلفظه لينوه بفضله، ويشير إلي أنه أصل تناط به النجاة استقلالاً(٤).

السر في قرن الحق بالتواصي:

أولاً: لأن النهوض بالحق عسير، والمعوقات عنه كثيرة: هوى النفس، ومنطق المصلحة، وتصورات البيئة، وطغيان الطغاة، وظلم الظلمة، وجور الجائرين، والتواصي تذكير وتشجيع وإشعار بالقربى في الهدف والغاية، والأخوة في العبء والأمانة، فهو مضاعفة لمجموع الاتجاهات الفردية، إذ تتفاعل معا فتتضاعف، تتضاعف بإحساس كل حارس للحق أن معه غيره يوصيه ويشجعه ويقف معه ويحبه ولا يخذله(٥).

فالحق ثقيل، والمحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي(٦)،ولذلك لما حضرت أبا بكر الوفاة أرسل إلي عمر فقال: إني موصيك بوصية إن حفظتها: إن لله حقا في الليل لا يقبله في النهار، وإن لله حقا في النهار لا يقبله في الليل، وإنه لا يقبل نافلة حتى تؤدّى الفريضة، وإنما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل في الدنيا وخفته عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع

(١) معجم الفروق اللغوية ص ١٩٤ ، ١٩٥

(٢) راض الدابة يروضها روضاً ورياضةً: وطأها وذللها أو علمها السير (لسان العرب ١٦٤/٧).

(٣) التحرير والتنوير ٥٣٢/٣٠، ٥٣٣

(٤) انظر: تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص٧٢

(٥) في ظلال القرآن ٦/ ٣٩٦٨

(٦) مفاتيح الغيب ٢٨٢/٣٢

فيه إلا الباطل أن يكون خفيفا، وإنما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا، وثقله عليهم، وحقّ لميزان لا يوضع فيه يوم القيامة إلا الحق أن يكون ثقيلا (١).

ثانياً: لما أكده القرآن الكريم من كراهية الناس للحق قال تعالى ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ [الزخرف: ٧٨] وسبب ذلك يرجع إلى أمرين:

الأول: هو جهل الناس بالحق وقديما قيل: الناس أعداء ما جهلوا ومن جهل شيئاً عاداه، قال تعالى ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤] وقال تعالى ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩].

الثاني: اتباع الهوي، فإن الهوي إله معبود ومن جعل إلهه هواه فهيهات أن يذعن للحق، قال تعالى﴿فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦] وقال تعالى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠](٢)، والذين يحاربون الحق لا يجهلون في الغالب أنه الحق، ولكنهم يكرهونه، لأنه يصادم أهواءهم، ويقف في طريق شهواتهم، وهم أضعف من أن يغالبوا أهواءهم وشهواتهم(٣).

السر في التعبير بلفظ "وتواصوا":

إنما قال "وتواصوا" ولم يقل" ويتواصون" لئلا يقع أمراً، بل الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي، وذلك يفيد رغبتهم في الثبات عليه في المستقبل(٤). أو لنفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع، فساعة يوجد إنسان في لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه، وترد

(١) أخرجه ابن أبي شيبه ٩١/٧ واللفظ له، الزهد لأبي داود ص٥٣، وأبو بكر بن الخلال في السنة ٢٧٥/١،
(٢) الناس والحق د /يوسف القرضاوي ص ٥٠، ٥١
(٣) في ظلال القرآن ٣٢٠٢/٥، ٣٢٠٣
(٤) مفاتيح الغيب ٢٨٢/٣٢

هذه المسألة أيضا إلى الموصى، فقد تأتي له لحظة ضعف أمام المنهج؛ فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أناس مخصوصون ليوصوا، وآخرون مهمتهم تلقى التوصية، إنما الأمر متبادل بينهم، وهذا هو التكافل الإيماني، والإنسان قد يضعف في مسألة من المسائل فيأتي أخ مؤمن يقول له: ابتعد عن هذا الضعف. إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقاومة لحظات الأغيار في النفس البشرية؛ لأن لحظات الأغيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال، فإذا ما رأينا إنسانا قد ضعف أمام التزام ما؛ فعلينا أن نتواصى بالحق، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية من يوصيك(١).

حكمة ذكر تواصيهم بالحق والصبر بعد الإيمان والعمل الصالح:

ذكر تواصيهم بالحق وبالصبر بعد ذكر تلبسهم بالإيمان والعمل الصالح للإشارة إلي حياة قلوبهم، وانشراح صدورهم للإسلام، فلهم اهتمام خاص واعتناء تام بظهور سلطان الحق، وانبساطه علي الناس حتي يتبع ويدوم اتباعه(٢).

الدلالة القرآنية علي الخسران بترك التواصي بالحق:

دلت آيات قرآنية كثيرة علي الخسران بترك التواصي بالحق منها قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [العنكبوت:٥٢] وقوله تعالى﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [غافر: ٧٨] والمبطل هو من مات مصراً علي الباطل، أو هم الآتون بالباطل في معتقداتهم وأقوالهم وأعمالهم، إذ الباطل ما ضاد الحق، والمقصود منه ابتداءً هنا هو الشرك بالله تعالى، فإنه أعظم الباطل، ثم تجئ درجات الباطل متنازلة، وما من درجة منها إلا وهي خسارة علي فاعلها بقدر فعلته(٣).

(١) انظر: تفسير الشعرواي ١٥٧١/٣
(٢) الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي ٣٥٧/٢٠
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٣٦٦/٢٥، وأضواء البيان ٣٩٥/٦

المبحث الرابع

التواصى بالصبر

لما كان الإنسان ميالاً إلى النقصان، كان فاعل ذلك الإحسان معرضاً للشنآن من أهل العدوان، وهم الأغلب في كل زمان، قال تعالى:﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ (١).

مدلول الصبر وروده في القرآن الكريم:

الصبر في اللغة : هو الحبس يقال: صبرت نفسي علي ذلك الأمر أي حبستها(٢). قال الراغب: الصبر: حبس النّفس على ما يقتضيه العقل والشرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه(٣).

وقد تكرر التنويه بالصبر في القرآن الكريم كثيراً حتى لقد بلغ عدد المرات التي ورد فيها باشتقاقاته المختلفة نحو مائة مرة، وهذا يدل علي أمرين:

أولاً: مبلغ العناية الربانية بترسيخ هذا الخلق أو هذه الفضيلة التي هي من أجل الفضائل الأخلاقية في نفوس المسلمين(٤).

ثانياً: أن الله سبحانه يعلم ضخامة الجهد الذي تقتضيه الاستقامة على الطريق بين شتى النوازع والدوافع، والذي يقتضيه القيام على دعوة الله في الأرض بين شتى الصراعات والعقبات، والذي يتطلب أن تبقى النفس مشدودة الأعصاب، مجندة القوى، يقظة للمداخل والمخارج(٥).

وعند التأمل في هذه المواضع نري أن كل صبر في القرآن محمود إلا

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢٢/٢٤٠
(٢) معجم مقاييس اللغة ٣٢٩/٣
(٣) المفردات ص ٤٧٤
(٤) التفسير الحديث ٥٦٤/١
(٥) في ظلال القرآن ١٤١/١

لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ نَارُ [الفرقان: ٤٢] ٱللَّهِ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ نَارُ [ص: ٦] (١).

السر في اختصاص التواصي بالصبر بالذكر:

تخصيص التواصِي بالصبر بالذِّكرِ مع اندراجِه تحتَ التواصِي بالحقِّ لعدة أمور:

أولاً: إبراز كمال الاعتناء به، أو لأن الأول عبارة عن رتبة العبادة التي هي فعل ما يرضى به الله تعالى، والثاني عن رتبة العبودية التي هي الرضا بما فعله تعالى، فإن المراد بالصبر ليس مجرد حبس النفس عما تتشوق إليه من فعل وترك، بل هو تلقي ما ورد منه تعالى بالجميل والرضا به ظاهراً وباطناً(٢).

ثانياً: أن جميع الرذائل تنتهي إلي ضعف الصبر أو فقده، كما أن جميع الفضائل تستمد منه حياتها(٣).

ثالثاً: إفراده بالذكر وتخصيصه بالنص عليه من أعظم الأدلة علي إنافته(٤) علي خصال الحق، ومزيد شرفه عليها، وارتفاع طبقته عنها(٥).

الحكمة في السكوت عن ذكر متعلق الصبر:

السكوت عن ذكر متعلق الصبر الذي يتواصى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعطيه دلالة الإطلاق والتعميم في حدود ما ورد في القرآن الكريم مما يصبر عليه المؤمنون من تكاليف الإيمان، والابتلاء، وفي السراء والضراء وحين البأس، وفي الجهاد ولقاء العدو، وتلك هي مسئولية الانسان

(١) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية أبو البقاء الحنفي ص ٥٤٣
(٢) إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم ١٩٧/٩.
(٣) انظر: تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٧٤.
(٤) أناف الشئ علي غيره: ارتفع وأشرف. ويقال لكل مشرف علي غيره إنه لمنيف(لسان العرب ٣٤٢/٩)
(٥) فتح القدير للشوكاني ٦٠١/٥.

الاجتماعيـة، تلزمـه دينـاً أداء حـق الجماعـة مـن التواصـي بـالحق والتواصـي بالصبر(١).

أنواع الصبر وأشقها علي النفوس:

قسم أهل العلم الصبر إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله.

الثاني: الصبر عن معصية الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله المؤلمة (٢).

فإن قيل: أي أنواع الصبر أشق على النفوس؟

فـالجواب: أن الصـبر المتعلـق بـالتكليف وهـو الأمـر والنـهى أفضـل مـن الصبر على مجرد القدر فان هذا الصبر يأتى به البر والفاجر والمؤمن والكافر فلا بد لكل أحد من الصبر على القدر اختيارا أو اضطرارا، وأما الصبر على الأوامر والنواهى فصبر أتباع الرسل وأعظمهم اتباعا أصبرهم في ذلك(٣).

أو يقـال: إن هـذا يختلـف، فـبعض النـاس يشـق عليـه القيـام بالطاعـة وتكون ثقيلة عليـه جداً، وبعض النـاس تكون الطاعـة هينـة عليـه، لكن تـرك المعصية شاق مشقة كبيرة، وبعض الناس يسـهل عليـه الصبر علـى الطاعـة، والصبر عن المعصية، لكن لا يتحمل الصبر علـى المصائب، يعجز حتـى إنـه قد تصل به الحال إلى أن يرتد والعياذ بالله(٤).

الدلالة القرآنية علي سببية الخسران بترك التواصي بالصبر:

جاء في القرآن الكريم ما يدل علي الخسران بترك التواصي بالصبر والوقوع في الهلع والفزع قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ

(١) التفسير البياني للقرآن الكريم ٩٢/٢.
(٢) انظر: مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ١٦٣/٢: ١٦٧، جامع العلوم والحكم ٢٥/٢.
(٣) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم ص٣٦
(٤) تفسير جزء عم لابن عثيمين ص ٣١٣

خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١].

فهذه الآية شروع في حال المذبذبين إثر بيان حال المجاهرين، أي: ومنهم من يعبده تعالى على طرف من الدين، لا في وسطه وقلبه، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم، لا على سكون وطمأنينة، كالذي ينحرف إلى طرف الجيش، فإن أحسّ بظفر وغنيمة قر وإلّا فر،﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ﴾ أي: دنيويّ من صحة وسعة اطمأنَ به، أي: ثبت على ما كان عليه ظاهرا، ﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ﴾ أي: ما يفتتن به من مكروه ينزل به﴿ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ ، أي رجع إلى ما كان عليه من الكفر(١).

وفي قوله تعالى﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ إشارة إلى أن هذا النفاق مع الله تعالى يقضي على صاحبه بخسران الدنيا والآخرة جميعا، فهو قد خسر الدنيا، لأن ما ابتلاه الله تعالى به لا يدفعه عنه هذا الكفر بالله، الذي لقى به ابتلاءه له، وهو قد خسر الآخرة، لأنه سيلقاه عز وجل على كفره هذا، وللكافرين عذاب أليم(٢).

هل هناك خسران مبين، وخسران غير مبين؟

نعم، الخسران هو الخسارة التي تعوَض، أما الخسارة التي لا عِوضَ لها فهذه هي الخسران المبين الذي يلازم الإنسان ولا ينفكُّ عنه، وهو خُسْران لا يقتصر على الدنيا فقط فيمكن أنْ تعوِضه أو تصبر عليه، إنما يمتد للآخرة، حيث لا عِوضَ لخسارتها، ولا صبر على شدتها.. فالخسران المبين أي: المحيط الذي يطوِق صاحبه(٣).

الحكمة في الجمع بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

جاء الجمع بين التواصي بالحق والتواصي بالصبر، لأنه لا يقوم حق إلا

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٢٣٥/٧
(٢) التفسير القرآني للقرآن ٩٩٥/٩
(٣) تفسير الشعراوي ٩٧٢٨/١٦

قام من ورائه الصبر إذ إنّ كل حق يترصّد له الباطل، ويزحمه الضلال، وتجلية الحق، ودفع الباطل عنه، يحتاج إلى مدد عظيم من الصبر والمصابرة(١).

فالتواصي بِالحق بدون الصبر كما يفعله الَّذين يقولون آمنا بِاللَّه فَإِذا أوذي أحدهم فِي الله جعل فتْنَة النَّاس كعذاب الله، وَالَّذين يعْبدُونَ الله على حرف فَإِن أصَاب أحدهم خير اطْمَأَن بِهِ وَإِن أَصَابَته فتْنَة انْقَلب على وَجهه خسر الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، والتواصي بِالصبرِ بدون الْحق كقول الَّذين قَالُوا أَن امشوا واصبروا على آلِهَتكُم كلاهما موجب للخسران وإنما نجا من الخسران الذين آمنوا وعملوا الصالحات وَتواصوْا بِالحق وتوَاصوا بالصبر(٢).

الحكمة في الجمع بين التواصي بالصبر وبالمرحمة وبالحق في القرآن الكريم:

جاء الحث علي التواصي بالمرحمة أيضاً مع الصبر في قوله تعالىٱللَّهِ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ نَارُ [البلد: ١٧] وبهذه الوصايا الثلاث بالتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، والتواصي بالمرحمة، تكتمل مقومات المجتمع المتكامل قوامه الفضائل المثلي، والقيم الفضلي، لأن بالتواصي بالحق إقامة الحق، والاستقامة علي الطريق المستقيم، وبالتواصي بالصبر يستطيعون مواصلة سيرهم علي هذا الصراط، ويتخطون كل عقبات تواجههم، وبالتواصي بالمرحمة يكونون مرتبطين كالجسد الواحد، وتلك أعطيات لم يعطها إلا القرآن وأعطاها في هذه السورة الموجزة (٣).

الحكمة في اختصاص هذه الأمور بالذكر:

حكم تعالى بالخسر على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، وبالصبر؛ لأن نجاة

(١) التفسير القرآني للقرآن ٧/١٠٤

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية ٢/٣٩٣، ٣٩٤

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ٩/٩٦، ٩٧

الإنسـان لا تكـون إلا إذا كمَّل نفسـه بالإيمـان والعمـل الصـالح، وكمَّل غيـره بالنصح والإرشاد، فيكون قد جمع بين حق الله، وحق العباد، وهذا هو السرُّ في تخصيص هذه الأمور الأربعة(١)، أو لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمان العمل الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بد لكثير من المتاعب والمشاق التي تحتاج إلى التواصي بالصبر والتواصي بالحق (٢).

هذا ومن الممكن أن يقال: إن الاستثناء الذي في السورة لا يدل على أن المؤمنين الموصوفين في ربح، مع أن الاستثناء إنّما سيق لمدحهم، بمضادّة حالهم لحال من لم يتناوله الاستثناء؟

فالجواب: أن الاستثناء، وإن لم يدلّ بصريحه على أنهم في أعظم ربح، ولكن اتّصافهم بتلك الصفات الأربع الشريفة يدل على أنهم في أعظم ربح، مع أنّا لو قدّرنا أنّهم ليسوا في ربح، فالمضادّة حاصلة أيضا لأنهم ليسوا في خسر بمقتضى الاستثناء(٣)، أو: لعله سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاء ببيان المقصود، وإشعاراً بأن ما عدا ما عد يؤدي إلى خسر ونقص حظ(٤).

فإن قيل: إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب وهو الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ولم يذكر الحكم فما الفرق؟

فالجواب: أنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل وهو الإقدام علي المعصية يحصل بالترك، وهو عدم الإقدام علي الطاعة، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل، أو: أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل، وفي جانب الربح فصل وبين لأنه هو اللائق

(١) صفوة التفاسير للصابوني ٥٧٥/٣
(٢) تفسير الشعراوي ٨٨٨٩/١٤، ٨٨٩٠
(٣) الموسوعة القرآنية خصائص السور ١٦٣/١٢.
(٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٣٦/٥.

بالكرم(١).

وإن قيل: هل تدل الآية علي نجاة من تواصي بالحق والصبر ولو لم يكن ملتزماً بهما؟

فالجواب: لا يصح أن يظن ظان أن النجاة منوطة بالتواصي بالحق وإن لم يكن الموصي آخذًا به، فلو كان مبطلاً وأوصى بالحق فقد نجا، هذا ما لا يعقل، وإنما جاءت الآية الكريمة على طريقة الإيجاز التي فضل بها القرآن جميع الكلام، فإن المراد: مَن كان على الحق وأوصى به، ومن المعروف عند العقلاء أنه لا يوصي بالشيء ولا يدعو إليه إلا من أصاب منه الحظ الأوفر، وكيف يدعو إلى أمر ويحسن الدعوة إليه مَن لا تكون له مِن ذلك الأمر حلية يُعرف بها؟ وما تراه من قوم يدْعون إلى المعروف وهم يقيمون على المنكر فذلك لا يعد دعوة صحيحة لأنهم لا يعرفون كيف يدْعون، وهم في دعوتهم إلى ما يدْعون إليه ينفرون الناس منه، ولا يميلونهم إلى ناحيته، وخطاب الكتاب إنما جاء على المعروف المألوف عند العقلاء (٢).

قال القاسمي: شرط النجاة من الخسران أن تصبر، وأن توصي غيرك بالصبر، وتحمله على تكميل قواه بهذه الفضيلة الشريفة، التي هي أم الفضائل بأسرها، ولا يمكنك حمله على ذلك، حتى تكون بنفسك متحلّيا بها. وإلا دخلت فيمن يقول ولا يفعل كما يقول (٣).

وإن قيل: مفهوم السورة الكريمة يدل علي أن من لم يلتزم بهذه المقومات الأربع من الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر يكون مصيره التعاسة والشقاء، فما بالنا نري من غير المؤمنين من ينعم بالسعادة والراحة والسرور في هذه الدنيا، بينما نري من المؤمنين من لا

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢٨١/٣٢.
(٢) تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٧٢.
(٣) محاسن التأويل للقاسمي ٥٣٧/٩

يحظي بذلك؟

فالجواب: أن السعادة المقصودة لا تعني وفرة المال وسعة العيش في ظاهر الأمر، وإن كانت النفوس قلقة، والضمائر محترقة، ولكن السعادة سكون النفس وراحة الضمائر، واطمئنان السرائر، والرضا الحقيقى بما وصل إلي اليد، وهذا مما لا شك فيه موجود عند المؤمن الذي تتحدث عنه هذه السورة القصيرة، فهو راض عن نفسه، راض عن ربه، سعيد وإن كان بين الأشقياء، حكيم وإن وجد بين السفهاء، لا يعرف الشقاء إلا بما ينعكس إليه من صوره في نفوس غيره، ومن كان مؤمناً ولم ينعم بذلك فخسرانه جاء من فقده الأركان الأربعة

أما الإيمان: فلأنهم أخذوه اسماً واكتفوا به علماً ورسماً، وورثوا عن الآباء والأمهات صوراً وعبارات، ومثل عبادات، لا يحوك بصدورهم شيء من معناها وأما العمل: الصالح فكيف يجتمع مع الحسد والعداوة والكبرياء والجهل والكسل ونحو ذلك مما تراه في عامتهم، والأغلب من خاصتهم، وأما التواصي بالحق والتواصي بالصبر فلم يبق له أثر بينهم، يرون ما يرون من المنكرات، ويحسون بما يحسون من فاسد الاعتقاد، وكل منهم ساكت عما يري، ويحس من الآخر كأنه لا صلة بينهما في الدين، وكأن لم يرد في دينهم ما يدعوهم إلي التناصح، ولو أن واحداً منهم نصح الآخر لقامت عليه قيامته، وظنه محتقراً لمنزلته غامطاً لحقه، ولوجد من حذاقهم من يلومه ويقبح عمله وكيف لا يخسر قوم هذا شأنهم(١).

وإن قيل: لم ضيق الاستثناء وخصصه في سورة العصر، ثم وسع الاستثناء وعممه في سورة التين فقال تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [التين: ٦] ولم يقل وتواصوا؟

(١) انظر: تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص٨٢: ٨٤

فالجواب: أن التواصي هو أمر الغير بالإيمان والعمل الصالح وهو قدر زائد على مجرد فعله، فمن لم يكن كذلك فقد خسر هذا الربح فصار في خسر، ولا يلزم أن يكون في أسفل سافلين، فإن الإنسان قد يقوم بما يجب عليه ولا يأمر غيره، فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مرتبة زائدة، وقد تكون فرضاً على الأعيان، وقد تكون فرضاً على الكفاية، وقد تكون مستحبة، والتواصي بالحق يدخل فيه الحق الذي يجب والحق الذي يستحب، والصبر يدخل فيه الصبر الذي يجب والصبر الذي يستحب، فهؤلاء إذا تواصوا بالحق وبالصبر حصل لهم من الربح ما خسره أولئك الذين قاموا بما يجب عليهم في أنفسهم ولم يأمروا غيرهم به، وإن كان أولئك لم يكونوا من الذين خسروا أنفسهم وأهليهم فمطلق الخسار شيء والخسار المطلق شيء (١).

(١) انظر: التبيان في أقسام القرآن لابن القيم الجوزية ص ٨٥، ٨٦.

النتائج

بعد هذا التطواف مع هذه السورة الكريمة نستطيع أن نسطر النتائج الآتية:

- هذه السورة من أوجز وأنفع سور القرآن الكريم، ولو لم ينزل منه إلا هي لكفت.
- فى هذه السورة إشارة إلى أهمية الوقت في حياة المسلم، فهو نعمة إلهية، يحاسب عليها العبد يوم القيامة.
- أقسم الله تعالى بالعصر علي أن جنس الإنسان في خسر، إلا من التزم بأمور أربعة هي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وهذه الأمور الأربعة هي مقومات النجاة للإنسانية.
- ليس المقصود بالإيمان مجرد الاعتقادفقط، بل يجب أن يقترن به العمل بمرادات الله تعالى.
- العمل الصالح المنوط به النجاة لا بد أن يتوافر فيه أمران: الإخلاص لله تعالي، والموافقة لما جاء به رسول الله صلي الله عليه وسلم.
- العمل الصالح لا ينحصر في نوع معين من الأعمال دون غيرها، ولكنه يعم ويشمل كل ما يعود علي المؤمن بالخير والنفع.
- فى ذكر التواصي بالصبر بعد التواصي بالحق إشارة إلى أن طريق الحق محفوف بالعقبات والأهوال، والثبات عليه يحتاج إلى صبر جميل وعزم مضاء.
- التعبير بصيغة الجمع في الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر فيه إشارة إلي روح الجماعة التي يجب أن تسري بين المؤمنين حتي تتحقق لهم النجاة.
- في سورة العصر دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه.

المراجع

القرآن الكريم

- إرشاد العقل السليم إلي مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون تاريخ.
- إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز، بديع الزمان سعيد النورسي،تحقيق إحسان قاسم الصالحي،شركة سوزلر للنشر ، الطبعة الثالثة ٢٠٠٢م القاهرة.
- الإتقان في علوم القرآن جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة: ١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م القاهرة.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م بيروت.
- أسرار التكرار في القرآن المسمى (البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان) محمود بن حمزة بن نصر أبو القاسم برهان الدين الكرماني، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة، بدون تاريخ
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ١٤١٨هـ بيروت.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى، تحقيق محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، تم نشره على مراحل في سنوات متعددة، القاهرة.
- البيان والتبيين للجاحظ، دار ومكتبة الهلال ١٤٢٣هـ بيروت.
- البرهان فى تناسب سور القرآن، أبو جعفر الغرناطي، تحقيق محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م المغرب.
- تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن، محمد رشيد رضا، الزهراء

للإعلام العربي ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م القاهرة.

- تفسير الإمام الشافعي جمع وتحقيق ودراسة:د.أحمد بن مصطفى الفرَّان (رسالة دكتوراه)،دار التدمرية ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م المملكة العربية السعودية.
- تفسير جزء عم لابن عثيمين إعداد وتخريج:فهد بن ناصر السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م الرياض.
- تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابى الحلبي، الطبعة الأولى ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م القاهرة.
- تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور، دار إحياء التراث العربي ٢٠٠١م بيروت.
- تفسير القرآن الحكيم لمحمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٠م القاهرة.
- التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية ١٩٨٤م تونس.
- تفسير الشعرواي، مطابع أخبار اليوم ١٩٩٧م القاهرة.
- تفسير الراغب الأصفهاني تحقيق ودراسة د. محمد عبد العزيز بسيوني، كلية الآداب بجامعة طنطا، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ -١٩٩٩م مصر.
- التفسير المنير، وهبة الزحيلي، دار الفكر المعاصر ١٤١٨هـ دمشق.
- التفسير الحديث،محمد عزة دروزة،دار إحياء الكتب العربية ١٣٨٣هـ القاهرة.
- التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب ، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ.
- التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة عبد الرحمن دار المعارف، الطبعة السابعة، القاهرة.
- التفسير الكبير للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي ١٤٢٠هـ بيروت.
- التعريفات للجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م بيروت.
- جامع البيان للطبري، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ بيروت.
- جامع الرسائل لابن تيمية،تحقيق د.محمد رشاد سالم، دار العطاء ١٤٢٢هـ

الرياض.

- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم،المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي،البغدادي،ثم الدمشقي،الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس،الناشر:مؤسسة الرسالة – بيروت،الطبعة:السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م
- الجامع المسند الصحيح للبخاري، تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.
- روح المعاني للألوسي، تحقيق علي عبد الباري ، الناشر: دار الكتب العلمية ١٤١٥هـ بيروت.
- الزهد والرقائق لابن المبارك، المؤلف: أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي، التركي ثم المرْوزي (المتوفى: ١٨١هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت
- سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ.
- السراج المنير للخطيب الشربيني، مطبعة بولاق (الأميرية) ١٢٨٥هـ القاهرة.
- السنة، المؤلف: أبو بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخَلَّال البغدادي الحنبلي (المتوفى: ٣١١هـ)، المحقق: د. عطية الزهراني، الناشر: دار الراية – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: دار ابن كثير، دمشق، بيروت/مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.
- العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال

- غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، دار الكتب العلميه ١٤١٦هـ بيروت.
- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار الصابوني ١٩٩٧م القاهرة.
- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق ١٤١٢هـ بيروت.
- فتح القدير للشوكاني، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب ١٤١٤هـ دمشق.
- الفوائد لابن القيم، دار الكتب العلمية ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م بيروت.
- القاموس المحيط للفيروز آبادى، مؤسسة الرسالة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م بيروت.
- كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه للسندي، دار الجيل، بيروت، بدون تاريخ.
- الكليات، أبو البقاء الكفومي، مؤسسة الرسالة، بيروت، بدون تاريخ.
- الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي ١٤٠٧هـ بيروت.
- لسان العرب ابن منظورالناشر:دار صادر- بيروت الطبعة:الثالثة-١٤١٤ هـ.
- مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية المجلد (٢٧) العدد الثالث لسنة ٢٠١١
- مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجه، تحقيق: محمد الكشناوي، دار العربية ١٤٠٣هـ بيروت.
- مصاعد النظر للإشراف علي مقاصد السور للبقاعي، مكتبة المعارف ١٤٠٨هـ الرياض.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ.
- مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، دار العلم للملايين ٢٠٠٠م بيروت.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م بيروت.
- مجموع فتاوي ابن تيمية،تحقيق عبد الرحمن بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م المدينة، المملكة العربية

السعودية.
- محاسن التأويل للقاسمي، تحقيق محمد باسل، دار الكتب العلميه ١٤١٨هـ بيروت.
- معجم الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، مؤسسة النشر الإسلامي الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ.
- مجموع فتاوى ورسائل الشيخ العثيمين، جمع فهد السليمان، دار الوطن ١٤١٣هـ الرياض.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م
- الموسوعة القرآنية، خصائص السور،المؤلف: جعفر شرف الدين، المحقق: عبد العزيز بن عثمان التويجزي، الناشر: دار التقريب بين المذاهب الإسلامية – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٠ هـ
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى، دار القلم ١٤١٢هـ دمشق.
- الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي، مؤسسة الأعلمي ١٣٩٣هـ – ١٩٧٤م بيروت.
- المسند الصحيح للإمام مسلم، دار إحياء التراث العربي بيروت، بدون تاريخ.
- المعجم الأوسط للطبراني، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي١٤١٤هـ القاهرة .
- المعجزة الكبرى القرآن، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة الناشر: دار الفكر العربي بدون تاريخ.
- المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة:

الأولى، ١٤٠٩.

- المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج للنووي، دار إحياء التراث العربي ١٣٩٢هـ بيروت.
- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، الشيخ محمد الغزالي طبعة دار الشروق بدون تاريخ
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للبقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، بدون تاريخ.
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، د. حسن باجودة، دار تهامة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م جدة.